ملف خاص بصوت البصرة

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية والنشر
الجمهورية العراقية

المجلد الرابع عشر - العدد الثالث ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

WWW.ATTAWEEL.COM

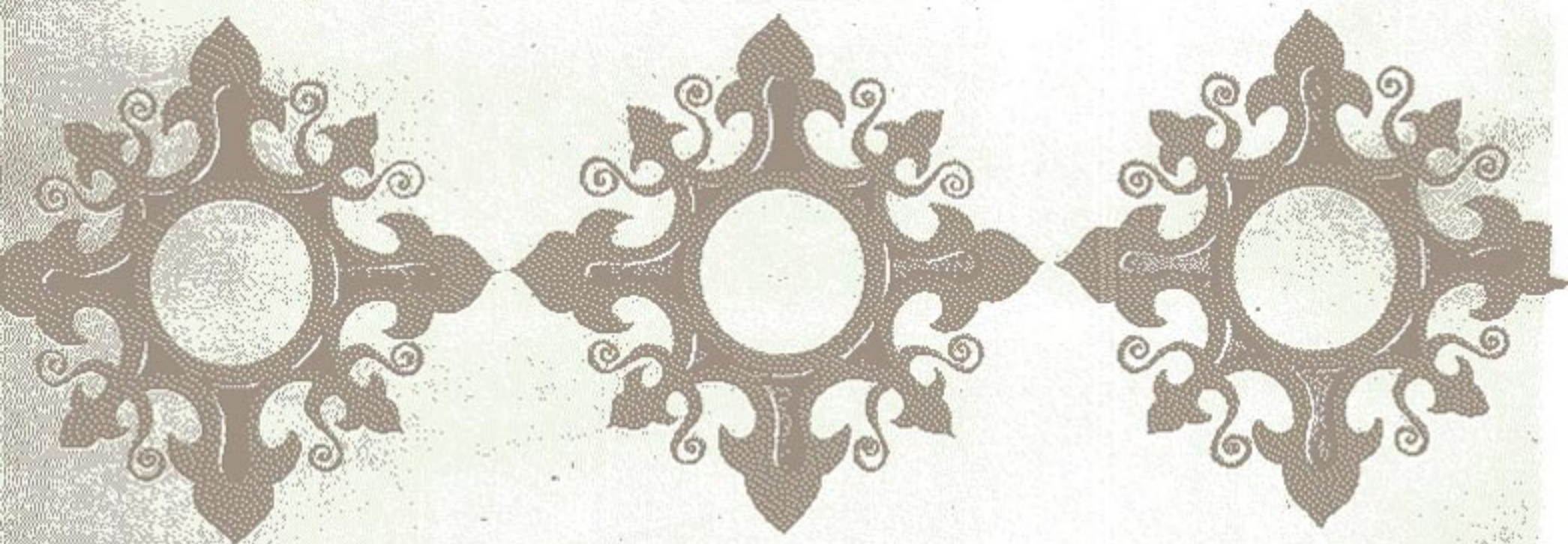

أسعد الحكيم محمد

البصرة في سنوات المحنة
١٧٧٥ - ١٧٧٩

الدكتور
صالح محمد العابد
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

شكلت السنوات الاربع من الحصار والاحتلال الايراني للبصرة احدى حلقات الصراع بين العراق وايران ، ولكنها كانت من اشدها دموية وقسوة وظلاما وفاقت في بعض الجوانب ، ماتعرضت له بغداد قبل هذه المأساة بقرن ونصف حين اطبقت عليها جنود الشاه عباس عام ١٦٢٣ ، فظلت ترزح تحت نير الاحتلال خمسة عشر عاما قبل ان تتحرر عام ١٦٣٨(١) وكما قاومت بغداد ببسالة وكادت تنجح في دحر الغزاة لولا الخيانة « التي كانت عنصرا اساسيا عول عليه الايرانيون كثيرا في حروبهم »(٢) ، قاومت البصرة ببطولة اسطورية القوات الايرانية مدة تزيد على العام ، قبل ان تفعل المجاعة والمرض وقلة الذخيرة وفقدان الامل في وصول الامدادات ، فعلها وتؤدي الى سقوطها في براثن الاحتلال .

١ ـ عن الاحتلال الايراني لبغداد وتحررها يراجع للمؤلف: حملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد ١٦٣٨ ، مجلة الكورد ، م٨ ، العدد ٤ ، ١٩٧٩ ، ص٧٩ ـ ٩٥

(2) John Perry, Karim Khan Zand, A History of Iran, 1747 - 1779 (Chicago, 1979), P. 179.

انها لعوامل متشابكة ، طبيعية وسياسية عانى منها العراق ومن ورائه الدولة العثمانية في سبعينات القرن الثامن عشر ، شجعت حاكم ايران كريم خان زند (١٧٥٧ ـ ١٧٧٩) على بدء العمليات العدائية التي شملت حدود البلاد من كردستان الى شط العرب . وياتي على راس تلك العوامل تفشي وباء الطاعون وماسببه من اضرار بليغة ، وانشغال الدولة العثمانية في الجبهة الاوربية ، وعدم الاستقرار السياسي في بغداد .

وطوال ثمانية عشر شهرا تقريبا من السنتين التي سبقت حصار الايرانيين للبصرة كان العراق ضحية تفشي وباء الطاعون ، فشل ذلك منه وجعله يبلغ اقصى حالات الاعياء . وقد وصف هذا الوباء بانه : « افظع الطواعين في تاريخ البلاد في العصور الحديثة »(٣) . وقد بدا في بغداد نيسان عام ١٧٧٢ ،

٢ ـ د . عبدالامير امين ، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر (بغداد ، ١٩٦٦) ص ٥١ .

Arnold Wilson, The Gulf (London, 1954), P. 183.

WWW.ATTAWEEL.COM

وأنتقل بسرعة الى البصرة وعلى طول الساحل الشمالي للخليج العربي ، وقبل ان يتوقف فجأة في صيف ١٧٧٢ كان قد حصد ارواح مئات الالوف من السكان . وقدرت المصادر البريطانية ضحاياه في بغداد وحدها بربع مليون نسمة(٤) . ويذكر بيرى استنادا الى مؤرخ فارسي معاصر هو اغامرزا حسن خان بان الوباء فتك بسبعين الف نسمة في اليوم الاول من انتشاره في بغداد ، وفي الأيام التالية كانت الوفيات اكبر من ان تحصى(٥) . وجاء في تقرير وكيل شركة الهند الشرقية الانكليزية هنري مود الذي رفعه الى حكومة بومباي اثر عودته الى البصرة في كانون الثاني ١٧٧٤ ، ان عدد ضحايا الوباء في البصرة بلغ ٢٠٠،٠٠٠ وفاة وحوالي المليونين في المناطق المجاورة(٦) . ويقترب هذا الرقم من تقدير ابراهام بارسونز الذي زار البصرة في السنة التي تلت الوباء ، حيث يذكر ان ٢٥٠،٠٠٠ نسمة هلكوا بالوباء(٧) ومهما كان الاختلاف في الارقام وما يبدو فيها من مبالغة ، استنادا الى مصادر أخرى(٨) ، فانها تعكس درجة الهول الذي سببه الوباء ، ونتفق فيما بينها على انه حصد ثلاثة ارباع السكان ، وسبب ضررا بليغا في الحياة السياسية والادارية والاقتصادية ، الى جانب اضعافه مقاومة البلاد معنويا وعسكريا امام الخطر الايراني . حيث ما كاد العراق يفيق من صدمة الكارثة حتى تعرضت حدوده الشمالية الشرقية عند شهرزور في الاسبوع الاول من تشرين الثاني ١٧٧٤ الى هجوم جيش ايراني مؤلف من حوالي ١٢،٠٠٠ رجل بقيادة علي مراد خان . وبالقرب من قره جولان ، تصدت له قوة عراقية مؤلفة من ٢،٠٠٠ رجل يقودها احمد باشا بابان ؛ وبعد قتال مرير استمر اربع ساعات اندحر

(4) Perry, P. 170.

(5) Quoted in : Ibid.

(6) Quoted in : A. A. Amin, British Interests in the Gulf (Leiden, 1967), fn., P. 109.

(7) Abrahan Parsons, Travels in Asia and Africa (London, 1808), P. 151.

٨ ـ قدر السائح ادوارد ايفس عدد سكان مدينة البصرة عام ١٧٦٠ بما يتراوح مابين ٦٠ الى ٧٠ الف نسمة . اما نيبور فقدر عدد السكان عام ١٧٦٥ بخمسين الف .

Edward Ievs, A Journey from Persia to England, by Unusual Route (London, 1773), P. 200:

J. Kelly, Britain and the Gulf 1795 - 1880 (Oxford, 1968) P. 36.

المهاجمون بعد أن خسروا ألفي قتيل ووقع قائدهم واثنا عشر من كبار ضباطهم اسرى(٩) . ومع ذلك ، حاول والي بغداد عمر باشا (١٧٦٤ ـ ١٧٧٦) تجنب الحرب ، وفي سعيه الى السلام أطلق سراح الاسرى مع رسالة مجاملة الى كريم خان . وتظاهر الاخير بالتجاوب مع مبادرة والي بغداد وارسل له رسالة تؤكد التزامه بحسن الجوار ومعها هدايا من بينها فيل(١٠) ! . ولكنه كان يضمر نقيض ذلك تماما ، مخططا لشن حرب شاملة على طول الحدود بين الدولتين . فبعد شهر واحد ، تحرك من شيراز جيش كبير هدفه احتلال البصرة ، بينما كانت اجراءات اعداد جيش آخر لمهاجمة شمال العراق تسير بوتائر سريعة في كرمنشاه . وفي الوقت الذي كانت فيه البصره تقاوم ببسالة حصار الغزاة ، اخترق الجيش الثاني بقوده نزار علي خان حدود العراق من الوسط(١١) . وبالقرب من خانقين باغت قوة صغيرة يقودها عبدالله باشا ، فذبح الفي رجل وسلب ١٢٠،٠٠٠ راس من الماشية واوقع الخراب في المناطق المجاورة قبل ان ينسحب الى كرمنشاه(١٢) . وتواصلت الغارات الايرانية على مناطق الحدود ، واسفرت عن احتلال زهاب واقتطاع ناحيتي كيلان وكلفين وضمهما الى ايران(١٣) .

لقد كان تحرك الدولة العثمانية امام هذه التطورات بطيئا جدا ، فلم تعلن الحرب على ايران الا في اواخر صيف ١٧٧٦ اي بعد ثلاثة اشهر من

(9) Perry, P. 186;

اما لونكريك فيقدر عدد افراد القوة المهاجمة بـ ١٤،٠٠٠ رجل (اربعة قرون من تاريخ العراق ، ترجمة : جعفر خياط ، بغداد ، ط٤ ، ١٩٦٨ ، ص٢١٦ ـ ١٧) .

(10) Perry, P. 186.

١١ ـ من الجدير بالذكر ان ايران استطاعت خلال غزوها العراق (١٦٢٣ ـ ١٦٢٨) سلخ لواء سنه ، ولم تعده اليه معاهدة زهاب (١٦٢٩) . فجعل ذلك الحدود تتخذ شكلا غائرا في الاراضي العراقية ، وهو ماانطلت عليه المعاهدة عبارة المنفذ (كدوك) المتجه الى شهرزور وقد اعتبر هذا (المنفذ) جسرا لتدخلات الحكومات الايرانية في شؤون شمال العراق . ينظر : د . عماد عبدالسلام رؤوف ، الوضع التاريخي لمدن وواحات الحدود الشرقية ، كتاب الحدود الشرقية للوطن العربي (بغداد ، ١٩٨١) ، ص ١٥١ .

(12) Perry, P. 187.

١٢ـ اقرت معاهدة ارضروم الثانية ١٨٤٧ ما كانت ايران قد سلخته من اراضي العراق . رؤوف ، المصدر السابق ، ص١٦٨ ـ ١٦٩ .

سقوط البصرة ، وحوالي سنتين من بدء أعمالها العدائية في شمال العراق . والسبب الرئيس لهذا الموقف الذي شجع كريم خان على مواصلة اعماله العدوانية يرجع الى انشغال الدولة في الجبهة الأوربيه . فمنذ سنة ١٧٦٨ وحتى ١٧٧٤ كانت الدولة العثمانية تخوض حرباً خاسرة ضد روسيا اسفرت عن فقدانها اسطولها وجانباً كبيراً من ممتلكاتها حول السواحل الشمالية للبحر الاسود(١٤) . وبموجب معاهدة كچك قينارجي الموقعة في تموز ١٧٧٤ تنازلت لروسيا ليس فقط بعض من مقاطعاتها ولكن عن جزء مهم من استقلالها الداخلي فيما يتعلق باشرافها على رعاياها المسيحيين(١٥) . ومما زاد الأمر سوءاً ان الدولة فقدت السلطان القوي مصطفى الثالث (١٧٥٧ ــ ١٧٧٣) ليخلفه سلطان ضعيف متردد هو عبدالحميد الاول (١٧٧٣ ــ ١٧٨٦)(١٦) . لهذا لم يكن غريباً ان يسعى الباب العالي الى محاولة التوصل الى تسوية سلمية مع ايران . وتنفيذاً لذلك غادر السفير وهبي افندي الاستانة في كانون الثاني ١٧٧٥ متوجها الى شيراز فوصلها في نيسان ، وتزامنت رحلته مع زحف الجيش الايراني الى البصرة ؛ وكما كان متوقعا لم تفلح السفارة في تحقيق اي هدف(١٧) ،وفشلت الجهود السلمية التي بذلتها الدولة العثمانية كافة ، وشجع الموقف السلمي المتردد من لدن العثمانيين الحاكم الايراني على مواصلة الحرب .

ان السبب الظاهر لشن كريم خان حربه على العراق وزحف جيشه لاحتلال البصرة هو سوء معاملة سلطات بغداد للتجار والزوار الايرانيين

(14) Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks, (Beirut, rep., 1961), PP. 281 - 409.

١٥ــ تلفت الانتباه الى ان السلطان العثماني استخدم اول مرة في وثيقة رسمية في هذه المعاهدة لقب (خليفة) بغية اظهار نفوذه على المسلمين وللتعويض عما فقده من سمعة سياسية وعسكرية .

د . عبدالكريم رافق ، العرب والعثمانيون ١٥١٦ ــ ١٩١٦ (دمشق ، ١٩٦٧) ص ٢٢٨ .

١٦ــ اخ للسلطان السابق ، وكان في الثانية والاربعين من العمر ، امضى سنوات حياته محجوزا عن العالم الخارجي في الحريم السلطاني

(Creasy, P. 409)

١٧ــ رسول الكركوكلي ، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نورس (بيروت ١٩٦٣) ، ص١٥٢ ، Perry, P. 188

للعتبات المقدسة ، لاسيما بعد أن أصدر الوالي أمره بفرض رسم عبور على اولئك المسافرين عند الحدود العراقية . فقد عدّ هذه الضريبة خروجاً على ملحق معاهدة كردان Kurdan المعقودة في ٤ ايلول ١٧٤٦ مع نادر شاه الذي نصت مادته الثانية على حرية مرور الزوار الايرانيين(١٨) . ويذكر الشوشتري ان السبب المباشر للحرب قيام والي بغداد بحجز اثنين من الايرانيين في الكاظمية(١٩) ! . ومن غير شك ؛ كانت هناك رغبة عارمة تملكت حكام ايران منذ العهد الصفوي لفرض هيمنتهم على العتبات المقدسة في العراق ؛ وازدادت هذه الرغبة في العهد الزندي . فمع انفصال الجزء الشرقي من امبراطورية نادرشاه عن الدولة الزندية ، خسر كريم خان مدينة مشهد حيث مقام الامام علي الرضا، سياسيا وجغرافيا . لهذا كان عليه التعويض عن تلك الخسارة الكبرى بمحاولة السيطرة على العتبات المقدسة في العراق التي اصبحت في تصوره ، اسهل في الوصول اليها من مشهد ، لحالة الضعف التي كان يعاني منه العراق انذاك ؛ ويبدو انه مهد لذلك عن طريق مضاعفة عدد الزوار وخلق نسبة سكانية مناسبة تسهل عليه الامر عند التنفيذ العملي للخطة . ومما يدلل على ذلك ان الزيادة الملحوظة في عدد الزوار واللاجئين وتراكمهم في بغداد لفتت نظر سلطات الولاية وجعلت الوالي يشعر بالخطر الكامن في هذا الظاهرة ، فحفزه ذلك الى التشديد في مراقبة الدخول عند نقاط الحدود . وكان من جملة اجراءاته فرض الرسوم على الداخلين الى العراق . وهذا الاجراء لم يعط كريم خان ذريعة شرعية للحرب فحسب « بل جعله يصور الحرب في نظر الايرانيين جهاداً مقدساً »(٢٠) فتحت غطاء الوصول الحر الى العتبات المقدسة ، شن كريم خان حربه على العراق . ولكن الاسباب الحقيقية لهذه الحرب هي غير ذلك . منها حاجة حاكم ايران الملحة لاشغال جيشه الكبير المؤلف في غالبيته من ابناء القبائل صعبة المراس الذين لا يتحقق ولاؤهم الا من خلال دفع رواتبهم والسماح لهم بالنهب والسلب والغنائم

١٨ــ نص المعاهدة :

L. Lockhart, Nadir Shah, (London, 1938), P. 255.

١٩ــ عبداللطيف بن طالب الشوشتري ، تحفة الاعلام (بومباي، ١٢٦٣) ، ص ٤٤ .

(20) Perry, P. 172.

عن طريق حرب تشن عبر الحدود(٢١) . وكان وراء الحمله الكبيرة على البصرة سعي كريم خان الى استعادة هيبته بعد اندحار حملته الاولى في شمال العراق(٢٢) ؛ وعجزه الواضح في مواجهة امام عمان احمد بن سعيد (١٧٤٩ ـ ١٧٨٣)(٢٣) ؛ بل خيبة مسماه عام ١٧٧٤ حتى في قهر شيخ هرمز ايام ان اعلن طول سواحل الخليج العربي عن « بداية الشروع باعادة احتلال ايران لعمان »(٢٤) ومن الطريف ان كريم خان قدم طلبا الى حكومة بغداد لمساعدته في الحملة المزمعة ولكنه جوبه بالرفض(٢٥) ، كما انه اتهم البصريين بتقديم المساعدة البحرية لشركائهم في النشاط التجاري العمانيين الذين «كان يعد نفسه في حالة حرب معهم لكونهم متمردين»(٢٦) ! . واكثر من هذا كله؛ وطبقا للمؤرخين الفرس، فان الوالي في بغداد رفض السماح للجيش الايراني بعبور الاراضي العراقية للزحف على طول الساحل الغربي للخليج العربي لمساندة القوة البحرية المتحشدة في ميناء كنكون لغزو عمان بقيادة زكي خان « ولسوان مثل تلك الحملة لم يفكر بها جدياً »(٢٧) . وسبب آخر لنقمة كريم خان على متسلم البصرة يرجع الى عدم مساعدة الاخير له في حملته على قبيلة كعب قبل عشر سنوات(٢٨) .

ومع كل الاسباب التي اوردناها لقيام الحملة، فمما لاشك فيه ان الاعتبارات الاقتصادية تاتي في مقدمتها . فموقع البصرة المتحكم في الخليج العربي

(21) Sir John Malcolm, The History of Persia from the Most Early Period to the Present Time (London, 1815), Vol. II, P. 139.

(22) J.G. Lorimer, Gazatteer of the Gulf, Oman and Central Arabia (Calcutta, 1815), Vol. I, Part 1, P. 145.

٢٢ـ حول النزاع بين الامام احمد وكريم خان الذي اندلع عام ١٧٦٩ وبلغ ذروته في ١٧٧٢ ـ ١٧٧٣ يراجع المؤلف : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ ـ ١٨٢٠ (بغداد، ١٩٧٦) ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(24) Perry, P. 172.

(25) Lorimer, P. 145; S.B. Miles, The Countries and Tribes of the Gulf (London, 1966), P. 271.

(26) Perry, PP. 158 - 160.

(27) Ibid., PP. 160 - 1.

٢٨ـ حول حملة كريم خان على كعب ونتائجها راجع للكاتب : امارة كعب في كتاب : الحدود الشرقية للوطن العربي (بغداد ، ١٩٨١) ، ص٢٢٢ ـ ٢٢٩ .

تمت موازنته من الصفويين بتطويرهم بندر عباس ميناء رئيسا لخدمة المناطق التي تسيطر عليها اصفهان . ولكن الاضطراب الذي اعقب اغتيال نادر شاه في ١٧٤٧ وجه ضربة مميتة للحركة التجارية لموانىء الساحل الشرقي من الخليج العربي . فمع الاضطراب الذي اجتاح ايران نتيجة صراع القاجار والزنديين والبختياريين والافغان ،ما عادهناك متسع للنشاط التجاري ؛ فزحف مركز التجارة في الخليج على نحو مطرد غربا ؛ بعيداً عن مراكز الاضطراب الى حيث الامن في البصرة التي استقطبت اثرياء التجار من الجنسيات المختلفة فاتخذوها قاعدة لنشاطهم واعمالهم التجارية(٢٩) . وكان ان انسحبت شركة الهند الشرقية الانكليزية من اصفهان في ١٧٥٠ ، ثم تركت مركزها في بندر عباس في ١٧٦٣ ، مبقية على وجود بسيط في بوشهر ، ولكنها لم تلبث ان هجرته في شباط ١٧٦٩ وانقطعت مدة من الزمن ، صلاتها التجارية مع الساحل الشرقي للخليج العربي(٣٠) . ابدى كريم خان معارضته الشديدة لتلك الخطوة التي اقدمت عليها الشركة والتي ستؤدي في حالة استمرارها الى انهيار تجارة بلاده ، وهدد بالرد عليها بتدمير ميناء البصرة الذي وجده « قذى في عينيه eyesore »(٣١) . واخيراً يمكن ان نشير الى عامل معنوي لاينبغي تجاهله في الاصرار الايراني على احتلال البصرة ذكره المؤرخ الفارسي مرزا محمد(٣٢) وهو عقدة تاصلت في نفسية كريم خان من نادر شاه ، لهذا حاول ان يظهر بانه يستطيع النجاح في انجاز مافشل فيه الاخير حين اراد ان يقهر البصرة عام ١٧٤٣(٣٣) . ولكن من المؤكد ان تلك المغامرة كلفت الايرانيين باهضا وسببت في الوقت نفسه دمارا للبصرة .

حصار البصرة

بينما كانت قوات والي بغداد منشغلة في الشمال لمواجهة الهجمات الايرانية، اصدر كريم خان امره بتعيين شقيقه صادق خان قائداً اعلى للجيش الايراني المؤلف من ٥٠٫٠٠٠ المتحشد في

(29) Amin, P. 110.

(30) Ibid., PP. 95 - 107.

(31) Perry, P. 173.

(32) Quoted in : Ibid.

٣٢ـ تفاصيل هجوم نادرشاه وحصاره البصرة ، يراجع : د عماد عبدالسلام رؤوف ، صمود البصرة اثناء حصار نادر شاه سنة ١٧٤٣ ،مجلة كلية التربية العدد ١(بغداد١٩٧٨) نورس ، العراق في العهد العثماني ، ص١٩٥ ـ ١٩٦ .

شيراز[٣٤] . وفي ١٠ كانون الثاني ١٧٧٥ تحرك صادق خان على راس جيشه محترقا عربستان فوصل تستر ، ومنها توجه مباشره الى الحويزة التي وصلها بعد حوالي شهر واحد . وامضى شهراً اخر للتحضير للعمليات وتامين عدد مناسب من الزوارق لضمان خطوط امداداته ومواصلاته . وكانت خطته ان يتحرك بجيشه من الشمال سالكا الطريق نفسها التي سلكها نادر شاه في هجومه السابق على البصره ؛ وتتضمن المرحلة الاولى السير بمحاذاة نهر الحويزة حتى التقائه بشط العرب عند سويب[٣٥] جنوب القرنه مباشره . ومن ثم عبور شط العرب على جسر يتم انشاؤه ، وضرب اية قوه لقبيله المنتفق التي قد تكون متمركزه هناك . ويتم تامين الشـــط حلفهم بواسطـة الزوارق ؛ ويتزامن ذلك بمحاولة السيطره على شط العرب جنوب البصرة من اسطول كان في طريقه من بوشهر وبندر ريـق لتنفيذ ذلـك فعـلا . وبالقضاء على المنتفق ، وضمان تعاون قبيله كعب ، فان قوه الهجوم ستؤمن مواصلاتها وخطوط امدادها بينما يطبق الحصار الكامل على البصريين[٣٦] .

تحرك الجيش الايراني من الحويزة في ١٢ مارت ١٧٧٥ ، ووصل بعد ثلاثة ايام ضفة شط العرب ، وكانت طلائعه قد وصلت سويب قبل ذلك ببضعة ايام . وجرى الابلاغ عن وصول القوات الايرانية الى البصره من الشيخ عبدالله قائد قوة من عشائر المنتفق مرابطة في الضفة اليمنى لشط العرب . وارسل القائد الايراني مبعوثا الى متسلم البصرة والشيخ درويش شيخ المنتفق ووكيل شركة الهند الشرقيه يطلب منهم ارسال ممثلين عنهم لمناقشة الشروط ، ولكن الطلب تم تجاهله[٣٧] . وخلال ذلك حصل تطور كان في صالح القائد الايراني ، فرجال الشيخ عبدالله السعدون وعددهم حوالي ١٥٠٠٠ رجل ، تركوا مواقعهم على الضفة اليمنى لشط العرب وتحركوا باتجاه البصرة دون ان يحاولوا عرقلة عبور الايرانيين الشط[٣٨] . وبرر الشيخ عبدالله خطوته هذه ، بانهم لم يتلقوا الاوامـــر بمقاومة الجيش الايراني في هذه المرحلة[٣٩] .

(34) Malcolm, II, P. 141.

٣٥- قرية صغيرة تبعد حوالي ثلاثين ميلا الى الشمال من البصرة على الضفة الشرقية لشط العرب وهي الان ناحية تابعة للقضاء القرنة (امين ، ص٨٢) .

(36) Perry, P. 174.

(37) Ibid.

٣٨- امين ، ص٦٧ .

(39) Perry, P. 174.

وتواتر وصول الاخبار الى البصرة بين ١٧ و ٢٠ مارت بأن افراد الجيش الايراني يعبرون النهر على قرب منفوخة من جلد الماعز بدون ان يواجهوا مقاومة[٤٠] ومن غير شك ، فان المقصود بهم هـم طليعة ذلك الجيش المؤلفة من الفي بختياري عبروا النهر سباحة وبمعونة القرب من اجل تامين راس جسر لحين وصول المواد اللازمة من الحويزة لانشاء جسر عائم[٤١] . وفي خلال اسبوعين انجز ذلك الجسر بمد سلاسل حديد ربطت الزوارق ببعضها . وفي ٤ نيسان اكمل الجيش الايراني عبوره مع تجهيزاتـه ومدفعيته[٤٢] . وقـد ساعد اهمال قـوة المراقبة العراقية المؤلفة من ٣٠٠ رجل التي يقودها الشيخ ثامر في كسر السدود الترابية الى الشمال مـن سويب ومن ثم اغراق المعسكر الايراني ، على نجاح عملية العبور والتمركز بدون عائق[٤٣] .

بدا الجيش الايراني فور اكماله عملية العبور زحفه لقطع مسافة ثلاثين او اربعين ميلا تفصله عن البصرة ، ووصلت طلائعه بالقرب من المدينة في فجر يوم ٦ نيسان ، وبعد ساعات قلائل وصل الجيش الرئيس ، وفي اليوم التالي وصلت مؤخرته وقوافل التموين[٤٤] . وقد امتدت خيم المعسكر من نقطة تقع على مسافة ثلاثة اميال الى الشمال من بوابة بغداد حتى المعقل (ماركيل) على بعد ميلين من مقر وكالة شركة الهند الشرقية ، مغطية مجالا طوله خمسة اميال وعرضه ثلاثة[٤٥] . ولكن ضخامة هذا المعسكر والقوة الكبيرة المعادية لم تفزع السكان : « فقد كانت المعنويات عالية جداً ، واظهر كل بصري استعداده للدفاع عن مدينته ، ولم يشذ عن ذلك الشيوخ والنساء ، وكان المتسلم سليمان اغا نفسه في مقدمة المدافعين يشحذ هممهم ويرفع من معنوياتهم »[٤٦] . واشار بارسونز الذي كان في المدينة آنذاك وشارك في العمليات الحربية في المرحلة الاولى من الحصار الى انه على الرغم من عدم مرور وقت طويل على اكتساح الطاعون للمدينة ، فان الروح المعنوية عاليـة ، والرجال جميعاً يحملون السلاح وهم في حالة استنفار كامل وثقة عالية ؛

(40) Parsons, PP. 164 - 5.

(41) Perry, PP. 174 - 5.

(42) Parsons, P. 170.

(43) Perry, P. 176.

(44) Ibid.

٤٥- نورس ، السياسة الايرانية في الخليج العربي ، ص٦٤- Ibid., ٦٥

٤٦- امين ، ص٦٩ .

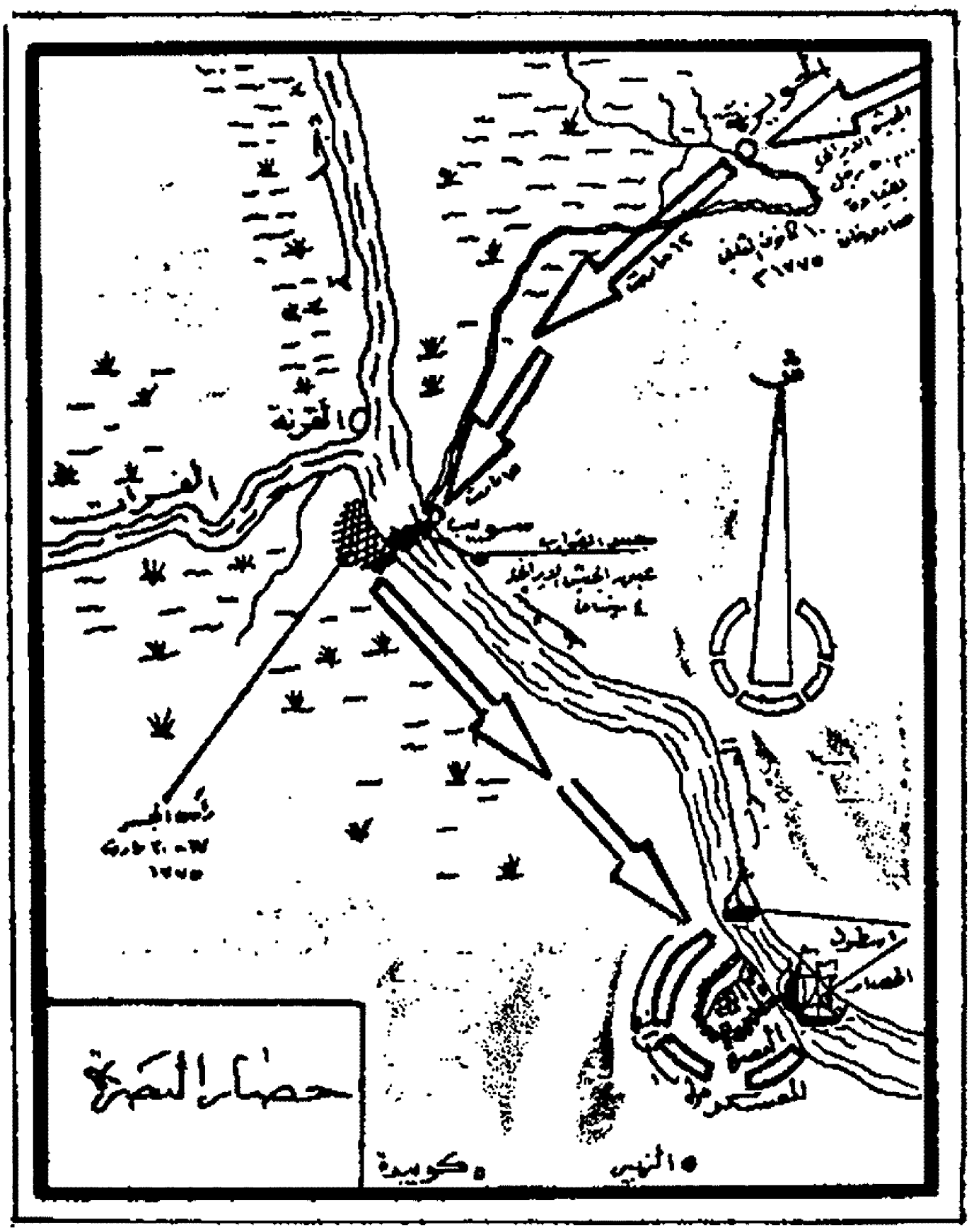

WWW.ATTAWEIL.COM

ودون قول احد التجار البصريين بان « المتسلم المتصف بالنشاط والشجاعة مع مساعدة سفن وكيل الشركة الانكليزية وبمعونة الله سيدحر هجومهم »(٤٧) .

وضع البصرة الدفاعي

تحصينات المدينة تألفت اساسا من سور ليس على مايرام كان محط انتقاد وانتقاص كل مسافر ورحالة بين سنتي ١٧٥١ و ١٨٠٠ بسبب الاجزاء المتهدمة فيه وعدم اتساقه : «هذا السور الطيني الذي تعوزه القوة، لم تمتد اليه يد الاصلاح، وفي اكثر اجزائه كان مهدماً خرباً »(٤٨) وكان يحيط بالمدينة بشكل مستطيل تقريباً بطول اثنى عشر ميلا(٤٩) (او ثمانية اميال حسب بعض التقديرات الاخرى)(٥٠) . وتوجد في الداخل فسح واسعة بعضها بساتين للنخيل وعدد من المقابر(٥١) . وسمك السور يتراوح مابين ٢٠ ــ ٢٥ قدماً في بعض الاماكن وهو معزز بخندق عميق وعريض يحيط به من جهاته حتى يلتقي بالشط . وبالاضافة الى ذلك ، هناك شرفات بعلو صدر الانسان ، وخمس بوابات وبطرية من ثمانية مدافع ذوات ١٢ باوند على السور ، اضافة الى ثمانية ابراج ، وحوالي خمسين مدفعاً من عيار يتراوح مابين ستة الى تسعة باوندات منصوبة على حواضن معظمها كان غير صالح للعمل حتى وقت قصير من بدء الهجوم الزندي . وما كان بالبصرة شحة في البارود حيث

(47) Parsons, PP. 173 - 4.

(48) Edward S. Waring, A Tour to Sheeraz (London, 5th ed., 1807), P. 132.

(49) Parsons, P. 168; J. R. Wellsted, Travels to the City of Caliphs, along the Shores of the Gulf and the Mediteranean (London, 1840), P. 149.

(50) George Keppel; Personal Narrative of a Journey From India to England (London, 1827), Vol. I, P. 69.

(51) Ibid; B. Plaisted; A Journey from Calcutta in Bengal by Sea to Bussorah... in the Year 1750 (London, 1758), P. 20.

يتوافر فيها الملح الصخري ، فجعلها مكتفية في انتاجه(٥٢) .

اما قوة حامية المدينة فتألف من ١٫٥٠٠ من الانكشارية الحق بهم المتسلم سليمان اغا مجندين من افراد القبائل المحلية والفلاحين . وازدادت قوتها بوصول ثلاثمائة رجل من المنتفق يقودهم الشيخ ثامر في ٢ نيسان . وفي اليوم التالي وصلت قوة من مائتي انكشاري من بغداد ، وقد ترك هؤلاء زوارقهم شمال القرنة ، ودار وا حول راس الجسر الايراني ، ثم ركبوا زوارق اخرى الى الجنوب . اما جيش المنتفق الميداني بقيادة الشيخ عبدالله السعدون فقد انسحب باتجاه الزبير(٥٣) .

موقف وكالة شركة الهند الشرقية والمراحل الاولى من الحرب

اتسم موقف وكيل شركة الهند الشرقية الانكليزية هنري مور خلال تلك الاحداث بعدم الاتساق والارتباك والتردد . فقد التزم الوكيل في البداية بسياسة حكومة بومباي القائمة على محاولة تجنب التورط في الصراعات المحلية ؛ ولهذا اعلن للمتسلم عن وقوفه على الحياد وانه لن يسمح لسفن الشركة الراسية في الميناء الاشتراك في القتال ضد الايرانيين(٥٤) . وعبر المتسلم عند تفهمه لموقف الوكيل ولكنه طلب منه الامتناع عن تحميل ممتلكات وبضائع الوكالة على السفن البريطانية خشية التأثير المعنوي السلبي على المدافعين ، فقد يذهب بهم الظن الى ضعف الموقف العسكري . وقد تعهد الوكيل بالالتزام بذلك الطلب مقابل ان يتكفل المتسلم بالتعويض عن اية خسائر قد تلحق بالوكالة وممتلكاتها(٥٥) . ولكن تطورات الموقف دفعت الوكيل الى عدم الالتزام بذلك والاشتراك في العمليات الدفاعية في المراحل الاولى من الحصار(٥٦) .

في ٢١ مارت وبينما كان الجيش الايراني يقوم بعملية عبور شط العرب عند سويب ، دخلت الشط اربع عشرة سفينة معادية في طريقها لاسناد عمليات جيش الغزو البرية . وحين اقتربت من سور المدينة اطلقت مدافعها بتظاهرة صاخبة محاولة التاثير في الروح المعنوية للمدافعين . ولشعور الوكيل مور

(52) Parsons, PP. 155 - 6; Perry, PP. 175 - 6.

(53) Perry, P. 176.

٥٤ــ امين ، ص٦٥ ، ٨٣ ــ ٨٤ .

(55) Perry, PP. 176 - 8.

(56) Wilson, P. 184.

بالخوف على ممتلكات الشركة ، وقد برر ذلك لرؤسائه فيما بعد ، اصدر امره الى الطراد (سكسس ـ ذي ١٤ مدفعا) لمهاجمتها ، وتمكن الطراد من تدمير احداها(٥٧) . وبعد بضعة ايام من هذا الحادث استجاب الوكيل لطلب المتسلم بتزويد سفينتي البصره الحربيه (دجلة ـ ذات ١٤ مدفعا) و (الفرات ـ ذات ١٤ مدفعا) ببحارة بريطانيين لقيادتها والاشتراك مع الطرادين (سكسس) و (ايكل ـ ذي ١٦ مدفعا) في العمليات النهرية . واشترك البريطانيون في عملية غلق مجرى شط العرب امام السفن المعاديه باقامة جسر من القوارب تربط بعضها ببعض سلسلة حديد بلغ طولها ١٢٠ قدماً وقد تم انجاز هذا الجسر في يومين فقط(٥٨) .

وفي ٨ نيسان ، اي بعد يوم واحد من بدء الاشتباكات في البر ظهر اسطول الاسناد الايراني المؤلف من ست عشرة سفينة منها عشر غلافات ، تتقدمه سفينة حربية كبيرة . والتحمت تلك السفن باسطول الدفاع البصري، واستمر القتال من الساعة التاسعة صباحاً حتى الثالثة مساء حينما انسحب طرادا شركة الهند الشرقية (ايكل) و (سكسس) في القتال الى جانب المدافعين ، مما اجبر السفن المهاجمة على التراجع(٥٩) . وبعد ثلاثة أيام وصلت انباء عن ابحار اسطول ايراني جديد من ميناء بوشهر في ٣١ مارت مؤلف من اربع عشرة غلافة وحوالي خمسين سفينة صغيرة تحمل اكثر من ١٥٠٠ رجل ؛ متجهة الى شط العرب لتعزيز عمليات الهجوم(٦٠) .

تزامنت مع هذه التطورات في جبهة العمليات البحرية ، تحضيرات ايرانية لشن الهجوم من البر . وقدم صادق خان طلبين جديدين : ففي ٣ مارت طلب من متسلم البصرة تقديم عشرين لكا (حوالي مليوني روبية)(٦١) لقاء انسحابه ، وفي ٥ نيسان طلب مفاوضة الشيخ درويش زعيم المنتفق ، ولكن الطلبين رفضا على نحو بات(٦٢) . وفي

(57) Perry, P. 177.

(58) Parsons, 166 - 7; امين ، ص٦٩

(59) Ibid., P. 173.

(60) Perry, P. 177.

٦١ـ نورس ، السياسة الايرانية في الخليج العربي ، ص٦٤؛ Ibid.

وبعض المؤرخين حدد المبلغ بلكين (٢٠٠,٠٠٠ روبية) امين ، ص٦٧ ، لونكريك ، ص٢٢٧ .

(62) Perry, P. 177.

٧ نيسان حاول اربعة ايرانيين استكشاف الاسوار عن قرب فبوغتوا بهجوم من رجال الحامية فسقطوا صرعى . وبناء على ذلك اصدر صادق خان امره بالهجوم الذي بدأ بغارة ليلية مباغته على الاسوار في الساعة الثانية من صباح ٩ نيسان . ووقع اشتباك ضاربين الجانبين وجهاً لوجه استمر عدة ساعات في ظلام دامس وكان القتال من الشدة بحيث شعر رجال شركة الهند الشرقية بالخوف فاسرعوا الى الصعود الى الطراد (ايكل) . ولكن مع بزوغ الفجر عم السكون ميدان القتال . وحقق المدافعون انتصاراً كاملا ، وخسر الايرانيون مائة قتيل مقابل ثلاثين شهيداً من البصريين(٦٣) .

لقد حقق هذا النصر السريع تأججاً في الروح المعنوية لسكان المدينة . وحاول الايرانيون تعويض هزيمتهم بالهجوم على الجسر العائم لاحراقه وكسر سلسلة الحديد التي تربط الزوارق ، ولكنهم جوبهوا بنيران كثيفة اجبرتهم على التراجع(٦٤) . وكان الوضع الدفاعي متينا والحماسة على اشدها حين اخبر المتسلم الوكيل البريطاني بانه يستطيع التعهد بحماية المدينة في البر اذا استطاع الوكيل حمايتها من النهر(٦٥) . وفي الوقت الذي ابدى الوكيل موافقته على راي المتسلم ، كان يدور في ذهنه حساب الفوائد والخسائر للمصالح البريطانية من استمرار بقائه في البصرة . فالانسحاب في هذا الوقت سيعني خرق تعهده السابق للمتسلم اضافة الى انه سيوجه طعنة في الظهر لمعنوية المدافعين(٦٦) . ولكن من الناحية الاخرى فان الوصول الوشيك للاسطول الايراني من بوشهر وتعليمات حكومة بومباي بالتزام الحياد والعمل على اقامة علاقات ودية مع كريم خان ، وما يمكن ان يحدثه استمراره في مساعدة المدافعين من ردود فعل ايرانية ، جعله يقرر الانسحاب(٦٧) . ولم يخبر مور احداً بقراره .

(63) Ibid.

(64) Parsons, PP. 174 - 8.

٦٥ـ امين ، ص٧٠ .

(66) Perry, P. 178; Amin, P. 113.

(67) Perry, P. 178.

ولكنه امر باعداد السفن لمغادرة الميناء . وظن الجميع ان الغاية من هذه الحركة التصدي للاسطول الايراني. وفي ١١نيسان غادرت السفينتان (ايكل) و (وسكسس) ، وعلى متنها الوكيل وبارسونز وموظفو الشركة ومايمتلكون من اموال منقولة ، وبرفقتهما السفن البصرية (دجلة) و (الفرات) وغلافتان يسيرها انكليز من موظفي الشركة[٦٨] . والتقت هذه السفن على بعد ثلاثين ميلا جنوب البصرة بالاسطول الايراني . ووقع تبادل اطلاق النيران من بعيد استغرق بعض الوقت بدون وقوع خسائر تذكر[٦٩] . وقد تراجعت السفن الايرانية حيث علقت بالمياه الضحلة عند التاسعة مساء ولكن مور لم يحاول استغلال الوضع وأمر سفنه بمواصلة طريقها . وبعد توقف قصير في قرين (الكويت) واصل تحركه الى بوشهر فوصلها في١٥ نيسان[٧٠] . والتقى مور هناك بمبعوث حكومة بومباي روبرت كاردن Garden [٧١] الذي حقق النجاح في مفاوضاته مع كريم خان وتم فتح وكالة في بوشهر . اما مور فقد وصل بومباى في ٣٠ تموز ومن هناك ارسل رسالة « اعتذار الى سليمان اغا لعدم تمكنه من المساعدة »[٧٢] !

البصرة بدون قوتها البحرية

الانسحاب المفاجىء للوكيل البريطاني بـ (ايكل) و (سكسس) ومعهما السفن الحربية البصرية مكن الايرانيين من احكام حصارهم على البصرة . فقد استغل اسطول بوشهر الفرصة واندفع مع المد محطما السلسلة التي تعترض المجرى وتم الاتصال بجيش صادق خان[٧٣] . وقد شجع ذلك القائد الايراني على شن هجومه الكبير لاقتحام الاسوار تجنبا لحصار طويل يكلفه كثيرا.

(68) Ibid., امين ، ص٧٠

٦٩ـ امين ، ص٧٠ ـ ٧١ و Lorimer, P. 146;

(70) Perry, P. 178.

٧١ـ خلال توتر العلاقات البريطانية مع كريم خان ورغبة الشركة في تجنب المصاعب التي يمكن ان يثيرها ضد مصالحها في المنطقة ارسل احد اعضاء مجلس بومباي روبرت كاردن الى بوشهر مخولا بصلاحيات واسعة في مفاوضاته مع كريم خان واعادة فتح مقر للشركة في بوشهر اذا ما اصر حاكم ايران على ذلك وبالفعل تم فتح ذلك المقر . Lorimer, P. 146; Amin, P. 113.

(72) Perry, P. 179.

(73) Wilson, P. 185; امين ، ص٧٢

وفي ٢٦نيسان وبعد قصف كثيف متواصل من مدفعية الاسطول والجيش طوال ليلة كاملة ،اندفع الايرانيون نحو الاسوار حاملين عددا كبيرا من السلالم في خمسة اتجاهات مختلفة . ولكنهم ردوا على اعقابهم بعد قتال مرير دام ساعة واحدة ، وتمكن البصريون من ايقاع خسائر كبيرة بافرادهم قدرت بالفي قتيل وفقدوا مائة سلم[٧٤]. واعترفت المصادر الفارسية بأنه لا القصف المدفعي ، ولا الهجوم الكبير استطاعا ان يؤثرا في روح المدافعين المعنوية[٧٥] . وفي مناسبة اخرى ، كشف الايرانيون نقطة ضعيفة في السور ونجحوا في تدمير اربعة ابراج مع استحكاماتها بقصف مدفعي كثيف استغرق يوما كاملا ، ولكن المدافعين تمكنوا من اصلاح تلك الثغرة وتعزيزها خلال اسبوعين . وايقن صادق خان على اثر ذلك من عجزه عن اقتحام المدينة ، ووجد نفسه مكرها على صرف النظر عن الهجوم المباشر والاكتفاء بتشديد الحصار .

النجدة العمانية

فيما كانت البصرة تعاني وطأة الحصار وشحة مواد التموين ، وصلتها الاخبار بان امام عمان احمد ابن سعيد يتهيأ لنجدتها وفك الحصار عنها ، استجابة لنداء الاستغاثة من والي بغداد عمر باشا وبعض البصريين[٧٦] . فالامام لم ينس دعم العراق لبلاده خلال تعرضها للغزو الايراني قبل اكثر من ثلاثين عاما ، وفي الوقت نفسه كانت تحدوه الرغبة بتوجيه ضربة للعدو المشترك الذي كان في حالة حرب معه[٧٧] . وفي منتصف آب ١٧٧٥ اصبح الاسطول العماني جاهزا للمهمة . وقد تالف من سفينة القيادة (الرحماني) واكثر من مائة قطعة بحرية منها : تسع سفن كبيرة وحوالي خمسين (داو) وسبعين غلافة وتراكي ، مزودة بانواع مختلفة من المدافع . وحمل الاسطول مابين ثمانية الى عشرة

(74) Perry, P. 179.

(75) Ibid.

(76) Salil - Ibn - Razik; History of Imams and Seyyid of Oman, translated by : G.P. Badger (London, 1871), P. 169; Miles, P. 272.

(77) Miles, P. 273.

آلاف رجل وكميات من المؤن للمدينة المحاصرة(٧٨) . ابحر الاسطول من مسقط بقوده الامام نفسه فمر ببوشهر في ١١ ايلول في طريقه الى البصرة ، وبعد بضعة ايام القت السفن مراسيها عند مصب شط العرب .

لم يكن الايرانيون غافلين عن هذا التحرك الذي سيهدد مخططاتهم ، فقبل شهور من ذلك ، اصدر كريم خان اوامره بجمع كل مايمكن الحصول عليه من سلاسل حديد ، وتم لحامها ببعضها في شيراز ، وارسلت الى صادق خان من اجل اغلاق مجرى شط العرب امام الاسطول العربي . وانجز ذلك بالفعل وتم وضع قوة كبيرة مزودة بالمدفعية عند طرفي السلسلة على جانبي النهر . وقد اعاقت هذه العملية سرعة وصول الامام واسطوله(٧٩) .

وفي منتصف شهر تشرين الأول تقدمت (الرحماني) واخترقت السلسلة وتناثرت الزوارق المرتبطة بها ، وتبعتها بقية سفن الاسطول(٨٠) . وبالرغم من الرياح العالية والقصف المدفعي تقدم الاسطول وتمكن من اسكات البطريات المعادية على ضفتي النهر ودمر عددا من الغلافات الايرانية، ووصل قرب الاسوار حيث توقف وسط ابتهاج البصريين(٨١) .

لم يكن باستطاعة جيش صادق خان والبحرية الايرانية ان تحول دون انزال المؤن والرجال للانضمام الى الحامية من اجل شن هجوم كبير على قوات الحصار . وبدأ الهجوم صباح اليوم التالي ؛ اذ خرجت قوة مشتركة ضمت البصريين والعمانيين واشتبكت بالقوات الايرانية في معركة ضارية اسفرت عن الحاق خسائر كبيرة بها ؛ كما تمكنت هذه القوة من رد هجوم ايراني مقابل(٨٢) . ومن غير شك ، فان المؤن التي جلبها العمانيون ، والاسناد العسكري الذي قدموه الى البصرة ، كان له دور كبير في تخفيف الضغط الذي عانى منه المدافعون ورفع لروحهم المعنوية وتعزيز موقفهم الدفاعي، ولو ان النجدة العمانية لم تكن قادرة على زحزحة المحاصرين عن مواقعهم واقتصرت الاشتباكات خلال الشهور التالية على تبادل نيران المدافع . ومع مرور الوقت ، اخذت مؤن العمانيين بالتناقص ، بينما كانت ، الامدادات في المؤن والرجال متواصلة للجانب الايراني من شيراز ، ومنها وصول قوة كبيرة يقودها علي محمد خان زند لتنضم لقوات صادق خان(٨٣) . اما البصرة ، فقد افتقدت كثيرا من المؤن الاماكان يتسرب اليها على ايدي رجال قبائل بني خالد والمنتفق ، الذين كان عليهم اختراق المستنقعات وبساتين النخيل بعمليات فدائية للوصول الى المدينة . بسبب هذا الوضع ، وخشية امام عمان من قيام الايرانيين بالتعرض لسواحل بلاده ، ولبعد الاسطول عند قواعده ، فقد قرر العودة . وفي اوائل سنة ١٧٧٦ ، رفعت السفن العمانية مراسيها وابحرت متوجهة الى مسقط(٨٤) .

تحرج الموقف

كان من الممكن فيما لو وصل جيش الانقاذ من بغداد ان يصبح الخطر كبيرا على جيش الحصار ، ولكنه لم يصل . فقد عانت بغداد في هذا الوقت من اضطراب سياسي قدر له الاستمرار بضع سنوات . وشهدت العاصمة سلسلة من الانقلابات رافقها تمزق داخلي ومعارك اهلية اتسمت بالفوضى(٨٥) في نفس الوقت الذي كان الاهتمام العثماني مركزا على مواجهة التهديد الايراني في منطقة كردستان . وهكذا تركت البصرة لمواجهة مصيرها .

بحلول ربيع عام ١٧٧٦ ، وبعد انسحاب الاسطول العماني ، اصبح بمقدور صادق خان تشديد قبضة الحصار . فتم وضع مفارز دائمة تحميها سلسلة متصلة من الاوتاد ثبتت على طول

(78) Ibid., Lorimer, P. 416, Salil, P. 169 - 170.
(79) Perry, P. 180.
(80) Salil, P. 170; Miles, P. 273.
(81) Miles, P. 273.
(82) Salil, P. 170.
(83) Perry, P. 181.
(84) Miles, P. 273; امين ص٧٣ .

٨٥- لا ادل على ذلك من انه حكمها خلال تلك السنوات العاصفة ١٧٧٦ - ١٧٨٠ ستة ولاة لم يحكم احدهم وهو حيدي باشا سوى اسبوع واحد للتفاصيل : لونكريك ، ص ٢١٧ - ٢٢٤ .

ضفتي شط العرب مسافة تزيد على خمسة عشر ميلا لمنع تسرب اية نجدة للمدينة . وقد حاولت مجموعة صغيرة من قبيلة بني خالد التسلل عبر هذه التحصينات لادخال بعض المؤن الى البصرة ، ولكنها اصطدمت بقوة ايرانية كبيرة مما اضطرها الى الانسحاب(٨٦) .

مضى على الحصار احد عشر شهراً ، حتى وصل الامر بسكان البصرة نتيجة لانعدام المؤن الى اكل القطط والكلاب والخيول والحمير ولب النخيل(٨٧) . ووصل نبأ من بغداد آنذاك يؤكد تعذر ارسال اي مدد ، وان الوالي الجديد مصطفى باشا، يطلب من المتسلم السعي الى التوصل الى تفاهم مع القائد الايراني(٨٨) . ولهذا وجد المتسلم الشجاع سليمان اغا وقادة المدينة انفسهم تحت وطأة ضائقة خانقة وظروف صعبة لاتطاق، فلجأوا مجبرين الى فتح باب المفاوضات مع صادق خان . فالمقاومة « اصبحت من غير جدوى ، وانها مؤدية لهلاك المئات من نفوس الجائعين » (٨٩) . وفي ٢٦ صفر ١١٩٠هـ/١٦نيسان ١٧٧٦ ارسل المتسلم وفدا الى مخيم القائد الايراني للبحث في شروط التسليم . وحصل الوفد على تعهد القائد بضمان ارواح وممتلكات اهالي المدينة جميعا . وفي اليوم التالي، استقبل سليمان اغا نفسه ،ودموع الاحباط في عينه، رسمياً في سرادق صادق خان ، وقبل مرغما التسليم المشرف بعد الدفاع البطولي المجيد للمدينة . وفي اربيع الاول / ٢٠ نيسان ، تم تسليم قلعة المدينة ، وبعد يوم من ذلك دخل صادق خان البصرة التي قاومت كثيرا واستسلمت مرغمة(٩٠)

(86) Perry, PP. 182 - 3.

(٨٧) ينظر : ابن الفلاس ، ولاة البصرة وتسلمهم (بغداد ، ١٩٦٢) ص ٦٧ ، الشيخ محمد خليفة النبهاني ، البصرة ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية (البصرة ، ١٩٨٠) ص ٢٨٧ ، الكركوكلي ، ص ١٥٥ ، امين ، ص ٨٥ .

(٨٨) النبهاني ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٨٩) لونكريسك ، ص ٢٢٠ .

البصرة تحت الاحتلال

مع ان غالبية المصادر الفارسية اشارت الى التزام صادق خان بتعهده بالمحافظة على حياة الاهلين وممتلكاتهم ، وعدم قيامه بعمليات انتقامية(٩١) ، الا ان الواقع كان بعيدا عن ذلك تماما . وهذا مايمكن ان نستخلصه مما كتبه المؤرخون المحليون ، وما سجله الاوربيون الذين كانوا في البصرة ، بالرغم من انهم لم يتعرضوا لمضايقة ما . فلقد عانى سكان المدينة جميعاً من عنت المحتلين وجشعهم وابتزازهم(٩٢) . يقول النبهاني : « لم يف ! صادق خان ! بشيء مما وعدهم به من العهود ، بل لم يترك شيئا من الظلم الاوفعله هو وعسكره ، وفعلوا افعالا مافعلتها التتار مع المسلمين»(٩٣) . فبعد دخول قواته المدينة مباشرة، اصدر حاكم ايران كريم خان اوامره بجمع (غرامة) تبلغ ١٢٨,٠٠٠ تومان « وهو رقم هائل ووحشي يفرض على مدينة كانت على حافة المجاعة . توقفت فيها خلال سنة من الحصار الاعمال الزراعية والصناعية كافة»(٩٤) . ومع ذلك كان على وجوه المجتمع تقديم (الهدايا) لصادق خان وضباطه الذين لم تكن لهم حدود فيما يبتغونه من الرفاهية والمتعة. واستخدمت قوات الاحتلال للحصول على مالريد مختلف انواع التعذيب كالفلقة والجلد بالسياط والاحتجاز الكيفي ونهب المساكن والمحلات(٩٥) ولم يسمح لاحد بمغادرة المدينة، ولكن بعض الافراد تمكنوا من الفرار عن طريق رشوة حرس البوابات، فنجوا مما يهيئه لهم المستقبل من اضطهاد اشد وطأة ، فدفع ذلك صادق خان ان يوقف عملية النزوح ويشدد الرقابة . وبلغ الامر بالناس الى بيع مقتنياتهم حتى

(90) Perry, P. 183.

(91) Ibid., PP. 192 -3.

(٩٢) لونكريسك ، ص ٢٢١ .

(٩٣) النبهاني ، ص ٢٨٩ ، وانظر ايضا : الكركوكلي ، ص ١٥٥ .

(94) Perry, P. 193.

(95) Ibid.

اوصلت الكارثة « قسماً منهم الى الانتحار من جراء العوز والفقر المدقع »(٩٦) . وفي ١٨ حزيران ، غادرت قافلة من الاسرى بحراسة على نقى خان زند الى شيراز ، وضمت هذه القافلة سليمان اغا وابناء الشيخ درويش ، الى جانب طائفة كبيرة من ابناء البصرة ، رهائن لضمان عدم مقاومة السكان للمحتلين(٩٧) . ونقيض هذه السياسة التعسفية تجاه الاهلين ، كان موقف صادق خان من ممثلي شركة الهند الشرقية الانكليزية . فبعد دخوله المدينة بوقت قصير استقبل ممثل الشركة الذي ظل في البصرة المستر كالي Gally معلناً ترحيبه بعودة النشاط البريطاني للمدينة ، وانه ملتزم بالفرمان الذي اصدره كريم خان بحماية افراد الشركة وممتلكاتها ، وانه شخصيا «يرغب قلبياً في ان يحيط الانكليز بكل وسائل الراحة ؛ وان اقصى درجات الحماية ستتوفر لمقرهم في المدينة »(٩٨) . وتم تسليم الممثل الانكليزي مقر الشركة الذي لم يتعرض لأي ضرر(٩٩) . وشجع هذا الموقف البريطانيين ؛ فحاولوا استغلاله لازالة آثار موقفهم خلال ايام الحصار الاولى بالنسبة الى اهالي البصرة فسعوا الى التقرب منهم عن طريق استغلال موقعهم الجديد للتخفيف من المحنة الشاملة ؛ واستطاعوا ان يحصلوا على ارتياح قسم من السكان لافتدائهم عدداً من رجال الحامية وآخرين كانوا اسرى لدى الايرانيين(١٠٠) ولاسيما انهم كانوا على قناعة بان الاحتلال لن يدوم طويلا . ويعلق لونكريك على هذه السياسة قائلا : « كثر الناس الذين كانوا يعدون وكيل الشركة حاميا لهم ، وبذلك تم نسيان الاعمال المؤسفة التي قامت بها الشركة من قبل لجر المغنم اليها »(١٠١) .

(96) Ibid., P. 194.
(97) Ibid.
(98) Ibid. P. 192.
(99) Wilson, P. 184.
(100) Pery, P. 194.

(١٠١) لونكريك ، ص ٢٢١ .

ان الاساليب التعسفية التي عامل بها صادق خان البصرة ، بدت معتدلة اذا ما قورنت بما ستلقاه المدينة بعد مغادرته وتعيين حاكم ايراني جديد عليها . ففي نهاية سنة ١٧٧٦ ، اصبح علي محمد خان زند حاكما للمدينة ، فكان ذلك بداية بلوغ الاضطهاد مداه الاقصى . ففي عهده ، وصل الانحلال في سياسة المحتلين الى درجة قصوى ، فلم يعد للجشع حدود ، والقتل العشوائي غير المبرر جعل السكان يحيون في وسط فاجع ماساوي لا يمكن ان يوصف .

تجمع المصادر على ان علي محمد خان المعروف باسم (شيركوش) كان انانيا خبيثا كثير الوساوس ولعل اشتراكه مع اخوته الاربعة في عمليات حصار البصرة منذ صيف ١٧٧٥ ضاعفت كراهيته للمدينة وسكانها ، فبدت اعماله الوحشية حين اصبح حاكما عليها انتقامية ، وكأنه يثار من البصريين. واستهل حكمه باعتقال عدد كبير من التجار والاعيان وعذبهم بقسوة لانتزاع مايمكن ان يكونوا قد اخفوه من اموال ، وامتد التعسف ليشمل السكان جميعا بدون استثناء(١٠٢) . ولم يكفه جشعه لمزيد من الاموال وجمعها بالقوة ، فعمل وضباطه على اشباع شهواتهم بخطف الفتيات والنساء المتزوجات من بيوتهن . وبدات القضية بخطف امرأتين مسيحيتين متزوجتين ، وبعد ان ابقاهما معه قرابة اسبوعين اطلق سراحهما(١٠٣) . وفي ١٧ شباط ١٧٧٧ ، حطم رجاله باب منزل مترجم شركة الهند الشرقية وخطفوا اخت زوجته الشابة(١٠٤) . والواقعة التالية تدل على الوحشية المتناهية التي لاحدود لها لدى الحاكم الايراني . فقد خطف ابنة طبيب بصري معروف ،

(102) Perry, PP. 194 -5.
(103) James Capper, Observation on the Passage to India Through Egypt and Across the Great Desert (London, 3rd ed., 1785), P. 222.
(104) Ibid.

وبعد ان احتفظ بها ثلاثة أيام طردها من منزله . وكان والدها ينتظر عودتها عازما على قتلها غسلا للعار لاثم لم يكن لها يد فيه ، ولكن عاطفته تغلبت على ماقرره من قتلها فزوجها . وحين علم علي محمد خان بالزواج ارسل ، وهو في حالة سكر وغضب ، يطلب الوالد والبنت والزوج صارخا « كيف يجرؤ الرجل على تقرير مصير بنت مخصصة لمتعته »ثم امر بقطع راس الوالد والزوج معا ، وبوحشية قل نظيرها امر الفتاة المسكينة أن تجلب الماء لغسل يدي الجلاد « ومن المسير اكمال بقية الحادثة » طبقا لما جاء على لسان كابر »(١٠٥) .

هذا هو الوحش الذي كان على راس قوة الاحتلال المؤلفة من ٧٫٥٠٠ رجل لحكم مدينة تقلص عدد سكانها بسبب الوباء والحصار ومعاناة الاحتلال من ٩٥ الف نسمة الى حوالي ٣٠ الف ليعود فيصبح ٥٫٠٠٠ أو اقل خلال السنة التالية (١٠٦) .

لم يكف على خان مااوقعه بالبصرة من ابتزاز وتعسف فحول انتباهه الى المقاطعات المحيطة بالمدينة. ونظم حملات غزو للقرى والقبائل المجاورة فتعرضت للنهب والقتل . واكثر من عاني من هذه الغارات المدمرة قبيلة المنتفق ورئيسها انذاك الشيخ ثامر السعدون . وبسبب هذه الاساليب الوحشية ، قام رجال المنتفق بكسر السدود ، واوقعوا هزيمة مرة بقوة اغارة ايرانية في اوائل حزيران ١٧٧٨ في موضع يسمى (الفضيلة)(١٠٧) . ومقابل هذه الهزيمة ، اغار علي محمد خان في مطلع تموز على مدينة الزبير التي كان عدد سكانها انذاك يبلغ ٧٠٠ نسمة وبعد ان نهبها ذبح رجالها كافة وحول نساءها واطفالها الى عبيد وتركها طعمة للنيران(١٠٨) .

وقر عزم الحاكم الايراني على تدمير قبيلة المنتفق واستئصالها بصورة نهائية . وبعد ان ترك في البصرة حامية من الفي رجل على راسهم محمد حسين خان بهبهاني واخوه الاصغر علي همة خان، تحرك شمالا على راس ستة آلاف فارس ايراني وعدد كبير من المشاة . واستقرت عزيمة رجال المنتفق على مواجهة هذا الجيش ووضعوا خطة محكمة لخوض المعركة الحاسمة (١٠٩) .

استطاعت قوة المنتفق المتقدمة المؤلفة من بضعة الاف رجل ان تستدرج الجيش الايراني الى ضفاف شط العرب في موقع يبعد خمسة عشر ميلا من البصرة ، حيث كانت تربض في مكان مختار قوة المنتفق الرئيسة المؤلفة من ثمانية آلاف رجل بقيادة الشيخ ثامر .وفي ١١ ايلول لم تعترض قوات المنتفق عامدة جيش علي محمد خان حين اراد عبور النهر بزوارق كانت معدة من قبل ، وبعد ذلك اطبق الفخ على الغزاة. فجانباراس الجسر الايراني كانا محاطين بتخصر النهر ، والجانب الثالث كان يقود الى مستنقع ، اما الرابع فكان يتمركز فيه الشيخ ثامر ورجاله وحينما بدا الايرانيون هجومهم ، ناور الشيخ ببراعة ساحبا اياهم الى المستنقع ، وعندها أغلق اي مخرج امامهم ، وبينما كانت خيولهم تتخبط في الطين ، اندفع المنتفقيون بعزم على اعدائهم موقعين بهم هزيمة ماحقة لم ينج منها الا القليل . وسقط علي محمد خان صريعا بضربة سيف سددها الى عنقه احد الفرسان العرب وقتل اخوه مهدي خان ، ولم يفقد المنتفقيون سوى عشرين شهيدا،بينما ابيد الجيش الايراني ماعدا ثلاثة افراد رجعوا الى البصرة في حالة يرثى لها واستغرق تطهير ارض المعركة اسبوعين وظلت اكداس عظام القتلى شاهدا لجيل كامل(١١٠) .

نهاية الاحتلال

احاط المنتفقيون بمد انتصارهم بالبصرة ، ولكنهم لم يغتنموا الفرصة المناسبة لمهاجمة الايرانيين الباقين داخل اسوار المدينة . وسارع محمد حسين وعلي همة خان الى ارسال المبعوثين الى شيراز حاملين نداء الاستغاثة فاندفع صادق خان مسرعا الى البصرة على راس قوة كبيرة من اربعة الاف فارس ، فوصل يوم ٢٤ كانون الاول . وحاول فور وصوله الاتصال بالشيخ ثامر من اجل عقد الصلح ، ولكن طلبه رفض على نحو قاطع(١١١) .

ومع فقدان الايرانيين السيطرة على المناطق المحيطة بالبصرة وشعورهم بالخطر المتربص بهم فقد

(105) Ibid., PP. 222 -3.
(106) Ibid., 222, 228.
(107) Perry, PP. 195 -6;
النبهاني ، ص ٢٩٠
(108) Capper, P. 224; Perry, P. 196;
لونكريك ، ص ٢٢١
(109) Perry, P. 196.
(110) Capper, 225; Perry, 196 -7
بنظر : لونكريك ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢
نورس ، السياسة الايرانية ، ص ٧٤ ـ ٧٥
(111) Perry, P. 197.

بدت المدينة بحالتها المتدهورة لا تستحق التمسك بها . فما وفره الطاعون والحصار وتعسف صادق خان ، دمره علي محمد خان . وعند عودة صادق خان بدت البصرة على مايقول كابر : « وقد تحولت طرقها الى مقابر ، ومن النادر ان نرى فسحة تزيد على ثلاثة اقدام بين قبر وآخر »[112] . واشار سستيني Sestini الذي زار البصرة بعد انتهاء احتلالها ، الى حالة المدينة قائلا[113] « لقد تم تخريب المدينة كليا ، لقد دمرها الفرس تماما » .

لقد اصبحت المدينة العامرة بعد اقل من ثلاث سنوات من الاحتلال «وكانها قرية كبيرة لافير، وقد خمدت فيها الحياة التجارية»(١١٤) . وحدا هذا الوضع مجلس مديري شركة الهند الشرقية الى دراسة مسالة الانسحاب كليا من المدينة ، ولكنه اكتفى بانزال الوكالة الى درجة مقيمية(١١٥) . وغادر عدد كبير من التجار البصرة الى موانىء اخرى في الخليج العربي لاسيما ميناء الكويت (القرين) الذي بدات اهميته تزداد منذ ذلك الوقت[116] . ومن غير شك كان صادق خان من الذكاء ليدرك بان البصرة ماعادت مكانا ملائما لطموحه بعد نضوب مواردها ، بل انها اصبحت مقيدة له لاسيما بعد وصول الانباء عن مرض اخيه كريم خان مما جعله يتلهف للعودة تامينا لمصالحه في وراثة العرش ،وهذا هو السبب الذي جعله يعجل في بداية سنة ١٧٧٩ ببناء قلعة على الضفة اليسرى لشط العرب لتغطية انسحابه المتوقع[117] . وفي ١٣ مارت علم صادق خان بخبر وفاة كريم خان ، وفي ١٩ منه اسرع الى شيراز منسحبا مع رجاله كلهم « من دون ان يلقوا نظرة الى وراء »[118] . وتسلم المدينة بعد انسحاب القوات الايرانية الشيخ درويش وسكرتير المتسلم السابق ملا احمد ، وبعد وقت قصير دخلها الشيخ ثامر السعدون ،وبعث برسول الى بغداد معلنا تحرير البصرة . فارسل والي بغداد حسين باشا اليهاقوة عسكرية وعين نعمان افندى متسلما[119] . وخلال ذلك اطلق سراح المتسلم السابق الشجاع سليمان اغا من سجنه في شيراز ووصل مع الاسرى الاخرين الى ضواحي المدينة . ووسط الترحيب والتاييد الشعبي تمكن من اقصاء نعمان افندي واستعاد منصبه السابق ، وايد الباب العالي ذلك الامر[120] .

اقترنت وفاة كريم خان الزند في امارت ١٧٧٩ ببداية دخول ايران مرحلة من التمزق والانحطاط والحروب الاهلية بسبب الصراع الاسرى بين افراد السلالة الزندية ومختلف القوى الاخرى[121] للسيطرة على الحكم دامت اكثر من خمسة عشر عاما وانتهت بتسلط اغا محمد خان مؤسس السلالة القاجارية . ومما يدل على التمزق والتكالب على الحكم بين افراد الاسرة الزندية ان جثة كريم خان ظلت مدة ثلاثة ايام بدون دفن اذ انشغل افراد عائلته بالقتال فيما بينهم ، وفقط حينما تمكن زكي خان من ذبح منافسيه ، جرت مراسيم الدفن حيث وارته حديقة مجاورة للبلاط[122] .

---

(112) Capper, P. 228.

(113) Quoted in : Perry, P. 197.

(١١٤) لونكريك ، ص ٢٣٣

(١١٥) بنائر للمؤلف ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ – ١٨١٠ (بغداد ، ١٩٧٩) ص ٥٠

(116) Wilson, P. 184.

(117) Perry, P. 198.

(١١٨) لونكريك ، ص ٢٣٣

(119) Perry, P. 198.

(١٢٠) لونكريك ، ص ٢٣٤

(١٢١) تولى الحكم سبعة من ابناء السلالة خلال مرحلة لاتتجاوز ستة عشر عاما ، ما عادت فيها ايران قوة ذات تاثير في المنطقة . Lorimeir, PP. 147-8.

(122) Perry, PP. 199 -200.